كسرت العزلة واستمدت قوتها من كرسيها المتحرك

جمالة البيضاني امرأة لا تعرف المستحيل

بملامحها الناعمة ونظراتها العميقة التي تحمل بحراً من الحنان والقوة ، بابتسامتها المشرقة والتي كانت توحي بالأمل لكسر المستحيل .. امرأة شفافة ترنوا إلى العالم حباً وعطاء وتضحية .. لم تستسلم لتكون حبيسة جدران أربعة أو القيود التي فرضها كرسيها المتحرك .. حملت مسؤولية رسالتها عن حب وطيب خاطر .. ولربما سُخرت لبنات جنسها من ذوات الاعاقة ..

إشراق دلال

في فبراير من العام 1977 جاءت جمالة البيضاني إلى الدنيا بقرية "العيوف" إحدى قرى محافظة البيضاء .. كانت ولادتها طبيعية ولم تشكو الطفلة من أية علة ،خرجت جمالة إلى الحياة ، أصبحت الطفلة المدللة ذات شخصية قوية ، كانت صاحبة الكلمة الأولى في المنزل بالرغم من صغر سنها ..

كانت جمالة على موعد مع القدر ليغير مجرى حياتها إلى الأبد .. ، ففي عام 1984 ، لم تكن قد تجاوزت السابعة من عمرها حتى أصيبت بحمى شوكية " إلتهاب السحايا " ذلك المرض الذي يتسبب في موت وشلل الكثيرين ممن يصابون به .

تطور المرض بشكل سريع وكانت الصدمة لتلك الطفلة المدللة التي كانت شقاوتها البريئة تسبق أقدامها الصغيرة والتي كانت تقفز من مكان لآخر مطلقة لضحكاتها البريئة أرجاء المكان .

لقد سكتت الضحكات وانتهت الشقاوة وحزنت الروح وتجمدت الأقدام .. جمالة " على كرسي بلا حراك " !

مر وقت ليس بقليل حتى استطاعت جمالة أن تخرج من عزلتها التي طوتها وقيدت مكامن الروح فيها متسائلة " لماذا أنا ؟ "

بدأت شيئاً فشيئا تتمالك قواها وتتأقلم بواقعها وبدأت بالاستسلام التام لقضاء الله وقدره ، كبرت جمالة واتسعت رؤيتها لدورها في الحياة .. ولأنها تمتلك السلام بدأ النور يضيء دربها حين قررت أن تبدأ بإنارة دروب الآخرين .. أرادت أن تثبت لنفسها ولأهلها بأنها يمكن أن تصنع فرقاً في هذه الحياة ،كان عمرها لم يتجاوز الثالثة عشرة حين قررت أن تخرج لتبحث عن المعاقات من حولها أرادت أن تمد جسر أمل حين تقدمت بمشروع دراسة ميدانية عن المعاقات اليمنيات حيث وافقت عليه وقامت بتمويله منظمة اوكسفام .

أرادت جمالة أن تتعرف على المعاقات وأن تتلمس أوضاعهن، وفي نزولها الميداني للبحث عن المعاقات اكتشفت المأساة الرهيبة والمعاناة الفائقة التي كانت تلفهن وتحيط بهن .. قوبلت جمالة باستنكار وتهكم من كل أهالي المعاقات، كانت ردود أفعالهم سيئة جداً ، كانت المعاقات حبيسات البيوت لا يخرجن أبداً ولا يسمح لهن برؤية أحد لقد كان وجود المعاقة في المنزل يعتبر شؤماً وعاراً على أهلها لذلك كان لزاماً عليهم أن يخفوها وينكروا وجودها..

بعد معاناة طويلة تمكنت جمالة من رؤية إحدى المعاقات كان اسمها " أحلام " وكان حلمها الوحيد هو أن تستطيع رؤية الشمس .. عاشت أحلام في منزل أبيها في حالة يرثى لها ، حيث ظلت طوال عمرها البالغ خمسة عشر عاماً محبوسة في إحدى غرف المنزل المعزولة ، لقد قالت لجمالة بعد أن تعرفت عليها وأخرجتها مما هي فيه " أنت الشمس يا جمالة " .

تكررت عملية البحث عن" المعاقات " والمدفونات أحياء ، حيث استطاعت جمالة أن تخرج إلى النور عدداً منهن .. لم يكن النزول الميداني وإقناع الأهالي بالعملية السهلة ، لكن إصرار جمالة لإيصال رسالتها لأكبر عدد من أفراد المجتمع أكبر من أي تحدٍ .. وكان لها ما أرادت .

بعد أن أكملت جمالة تعليمها الثانوي بتفوق تقدمت للجامعة للحصول على درجة البكالوريوس في علم الاجتماع وبكل الإصرار كان لجمالة ما أرادت ..

تلك الجملة و كلما تكررت على مسامعها " .. ما الذي من الممكن أن تعمليه وأنتي معاقة ؟" كانت تزيدها إصراراً وتحدياً ..

ورغم كل ذلك بدأت جمالة رحلتها الحقيقة في البحث عن الفئة المنسية من هذا المجتمع .. حينما تم تعيينها كمنسق وطني لحقوق المعاقين في برنامج التأهيل المجتمعي للأطفال المعاقين .. بدأت جماله بالسفر لمحافظات اليمن وأريافها للبحث عن ضالتها ،كان العمل شاقاً وصعباً لكن جمالة كانت أكثر تحدياً وثقة وقوة ..كانت تشعر بأن في عملها هذا قيمة عليا منشودة ..

وجدت جمالة بأن وضع الإعاقة في اليمن صعب جداً لكن وضع المرأة كان مزرياً ويقع تحت وطأة وهيمنة ثلاثي الجدران " كونها معاقة وامرأة من عائلة فقيرة " ، فأدركت جمالة بأنه قد آن الأوان لإنشاء جمعية خاصة برعاية المرأة اليمنية المعاقة وكان ذلك في أوائل 1998، تقدمت جمالة بطلب تأسيس الجمعية إلى وزارة الشؤون الاجتماعية والعمل وكان يوماً في حياة جمالة لا ينسى " دخلت مكتب المسئول القابع على كرسي اختفى نصف جسده الممتلئ تكبراً وتعنتاً خلف طاولة مكتبه ، جلست ووضعت عكازيها بجانب الكرسي ، نظر إلى عكازيها بطرف عينيه قبل أن يتكرم بمد يده لكي يتلقف الطلب من يد جمالة ، وما إن وقعت عينيه على الطلب ليقرأه حتى استغرق في الضحك وانطلقت قهقهاته لتعم المكان ..أشار بإصبعه في سخرية مفرطة أنتي يا جمالة تريدين تأسيس جمعية ؟!

أجابته بنعم .. ما كان منه إلا أن رمى لها طلبها وقال في وجهها مستحيل وأنتي معاقة .. وبرد الواثق القوي أجابته : لا تنظر لإعاقتي بل انظر لعقلي وما باستطاعتي القيام به " ، وبعد رحلة طويلة في مراجعة الجهة المختصة لحصول جمالة على الترخيص نالت مبتغاها .. وبدأت مشوارها الحقيقي في انتشال بنات لم يكن لهن ذنب سوى أنهن معاقات .. في ظل حكومة أخذت موقف المتفرج ومجتمع يعتبر المعاقة لعنة يصاب بها رب الأسرة وفي ظل جهل متعمد لأسرة تخفي بناتها خشية وصمة العار والخزي ..

جمالة البيضاني .. كانت أماً ليست ككل الأمهات إنها أماً لـ " 2000" معاقة احتضنهم قلبها الكبير .. قبل أن تحتضنهم بجمعية التحدي ..

في عام 2004م وفي زيارته لليمن قال عنها خبير التنمية البشرية المصري الدكتور إبراهيم الفقي " امرأة مختلفة من طراز العظماء ،الأقوياء ، الذين سخرهم الله سبحانه وتعالى لمساعدة الآخرين .. وجدت في ابتسامتها حنان الأم وفي عينيها إصرار وقوة وعزيمة فاقت توقعاتي وفي نبرة صوتها مزيجا من الحنان والقوة وعلمت أنني أمام إنسانة غير عادية " .

كما قالت عنها غادة شناعة مؤلفة كتاب (امرأة لا تعرف المستحيل) :" ذلك الكرسي المتحرك هو الذي دفعها لكي ترسم معالم نجاحها بريشة من الحب والعطاء والتضحية وهو الذي أشعل في داخلها الحماس وزرع فيها القوة والإصرار وجعلها ترسم البسمة على وجوه لم تعرف الابتسامة من قبل أبداً وتحفر الأمل في نفوس عاشت في الظلمة وكان يمكن أن تموت في الظلمة ".

في 2007م تحققت أهم خطوة في مسيرة جمالة لتحقيق حلمها في بناء مدينة متكاملة للمعاقات كان الطريق إلى الحلم الكبير طويلاً وشاقاً جداً غير أن جمالة أدركت بأن قدرات الإنسان لا حدود لها ..

عرضت عليها زوجة رئيس الوزراء التركي رجب طيب اردوغان بأن تقبل الاستضافة والعمل بتركيا لأنها ستحقق نقلة نوعية هناك .. كما عرض عليها الدكتور إبراهيم الفقي بأن تكون سفيرة معه في جولاته التدريبية لتمثل " أنموذجا " وبأنها ستحقق أرباحا كبيرة في عدة سنوات..أيضاً عرض عليها بأن ترأس منظمات الشباب الإقليمية في الأردن لمدة أربع سنوات مع كل التكاليف والإقامة ..لكنها ومع كل هذه العروض رفضت بأن تترك بناتها ..رفضت بأن تتخلى عن رسالتها لأي سبب وإن كان سيعود بالفائدة عليها ..

بدأت جمالة تعاني من المرض وبدأ المرض يشتد إلا أنها كانت عصية عليه متحدية له كما تحدت كل العوائق التي وقفت في طريقها يوماً ، وبعد إلى عامين من المعاناة مع المرض والذي اشتد في الفترة الأخيرة لكنه لم يمنعها نقص الأكسجين من أن تكون بجانب بناتها المعاقات أو أن تسعى لتلبية طلباتهن واحتياجاتهن..

قالت سبأ جميل رئيسة الجمعية إن جمالة جاءت للجمعية وهي تحمل أنبوبة الأكسجين وظلت تعمل طيلة النهار وفي وقت الغروب طلبت أن تحضر لها الدواء حيث ذهبت سبأ راكضة تبحث عنه في أدراج مكتبها وما أن عادت إلا وقالت لها جمالة ليس هذا احضري لي بناتي هن دوائي ، كانت تشعر بأنهن دوائها وبقربها منهن تستمد الحياة..

كان يوم الأربعاء حين عزمت على السفر رغم ما كانت تعانيه من مرض وبالفعل سافرت إلى "يريم " للتنسيق لافتتاح مركز للمعاقات بتلك المنطقة لكن الوقت لم يسعفها فاشتد مرضها وأدخلت إلى المستشفى وهناك على سرير المرضى وأثناء سكرات الموت كانت تسأل لتطمئن على بناتها المعاقات وفي يوم السبت 15من ديسمبر 2012 توفت جمالة البيضاني ..

شقيقتها " أم أيمن " تسرد مع بحر من الدموع: جمالة هي الحنان ..أعطاها الله من التميز والذكاء ما لم يعطه أي أحد في العائلة .. أعطتنا حب لو وزع على الدنيا بأكملها لن ينفد ..

رسالتها حملتها عن الدولة عن المجتمع وعن الأسرة، في حين الأسرة تخلت عن بنتها .. جمالة لم تعش لنفسها أبداً بل عاشت لهذه الفئة كرست حياتها في كيف تخرج المعاقات من عزلتهن ..

قال عنها الأستاذ نصر طه مصطفى مدير مكتب رئاسة الجمهورية : رغم إعاقتها الحركية لكنها كانت أكثر نجاحاً وخدمة للوطن وقضاياه الإنسانية من كثير من الأصحاء فلم تمنعها الإعاقة من تحقيق أرفع درجات النجاح في العمل الإنساني والخيري فقد أسست رحمها الله كياناً يرعى المعاقات وعملت بكل الاجتهاد والنشاط على ربط هذا الكيان بعدد من الهيئات الدولية والخيرية لتنتشل بذلك آلاف المعاقات وتأخذ بأيديهن لحياة أفضل ، جمالة البيضاني نموذجا مشرفاً للمرأة اليمنية المتمثلة بقيم الرحمة والحب والتكافل ..

سطرت جمالة رسالتها الأخيرة قائلة : " آمنت بأن الإنسان مادام يلتقط أنفاسه في هذه الدنيا فإن عليه أن يبحث في داخله دوماً عن شيء يقدمه للآخرين ، وألا يقف عند نقطة معينة في حياته ، ومهما بدأ عمله بسيطاً فإن إخلاص النية لله يساعده على أن يكبر شيئاً فشيئاً ، فلا تستهن بأي عمل مهما كان يبدو صغيراً .. ولقد آمنت بأن عطاء الإنسان يجب أن يكون مستمراً حتى إذا رحل عن هذه الدنيا استمر عطاؤه واستمرت رسالته العظيمة ، لقد عملت من أجل هذا ، وأقنعت الكثيرين من حولي ، بفضل الله أن يحملوا رسالتي ويكملوا رسالة الحب والعطاء التي بدأتها"

بهذه الكلمات ترجلت جمالة من على كرسيها والذي كانت أسيرة لعجلاته المتحركة عوضاً عن " قدميها " ظلت أسيرة له طيلة حياتها حرمها من أن تكون كأي امرأة طبيعية لكنه لم يمنعها من أن تتفوق أكثر منهن .. ترجلت جمالة لترحل عنا للأبد علها تجد ما فقدته في دنياها لتجده في دار البقاء ..بناتها في جمعية التحدي يتعهدن لها بمواصلة ما بدأته وبأنهن على نهجها لسائرات .. فهل من الممكن يوماً أن نكون بعطاء جمالة ؟!

آمنت بأن الانسان مادام يلتقط أنفاسه في هذه الدنيا فإن عليه أن يبحث في داخله دوماً عن شيء يقدمه للآخرين ، وألا يقف عند نقطة معينة في حياته